فيه أكثر اثمارا وانتاجا وذلك بكشف استعداد كل منهم وتسييره فيما هو عليه اقدر وله انفع

واخيرا يجب أن تكون سياسة التعليم عندنا بعيدة النظر ثابتة الخطوات بحيث تقصد الى غرض واضح جلى فى هدوء وحزم فتعيد النظر فى مدارسنا الحاضرة وتحدد لكل منها منزلته وتختار له من المناهج والوسائل التنفيذية ماهو أسرع اتصالا الى غايته المرجوة منه ثم تكون مواردها وجهودها موزعة بين هذه الابواب جميعها بنسبة خطورتها وفائدة البلاد منها والله الموفق الى سواء السبيل ؟

(محمد عبد الواحد خلاف)
مفتش التعليم بالجمعية الخيرية الاسلامية

أطوار النمو

لقد عنى العلماء فى العصور الحديثة بدراسة الاطفال وطرق نموهم ومميزاتهم التى يمتازون بها فى أطوارهم المختلفة وألفوا فى ذلك الكتب المسطورة ووصفوا فيها النشوء الجسمى والعقلى والخلقى لبعض الأفراد واستنتجوا القواعد واستنبطوا القوانين العامة وعدوا ذلك فرعا من التربية وأرشدوا المدرسين الى شأنه وبينوا أثره فى التدريس وطرقه ومناهجه فأتى ذلك بكثير من الفائدة وعاد على الأطفال والمدرسين والمدارس بالخير الجزيل

كان الناس فى العصور الغابرة لايحسبون للطفل حسابا ولايعرفون عن نموه شيئا وكل ما اعتقدوه أن النفوس البشرية أمارة بالسوء وأن عقول الناشئين أوعية لابد من أن تطرد منها الروح الخبيثة وأن يصب فيها العلم صبا حتى تمتلىء فلا يبقى فيها سم خياط حتى لايلجه الشيطان وكان لذلك أثر سيىء فأنه أدى الى الشدة والضغط على المتعلمين واختيار المناهج والمواد التى لاتتفق مع ميولهم لأنهم يميلون للشر بطبيعتهم وان أول من حارب هذه الفكرة ودعا الناس الى ملاحظة طرق النمو الطبعى فى الاطفال هو جاك رسو الذى أرشد المدرسين الى أن للناشىء ميولا وغرائز ورثها عن آبائه وأجداده وأن التدريس اذا لم يجر على مقتضاها وينتفع بها أدى ذلك الى خسران عظيم وتابعه فى رأيه هذا بستالتزى وفرديل وغيرهما من علماء التربية وبهذا حق علينا أن نتكلم باختصار عن أطوار النمو للطفل والخواص التى تميز كلا منها ونستنتج ما يجب على المدرسين عمله فى تلك العصور المختلفة

ان حياة الناشىء يمكن تقسيمها عدة أقسام اعتيادية فقط لأن الحياة واحدة لاتتجزأ والنمو مستمر والخواص يندمج بعضها فى بعض فلا يعلم مبدؤها ولا منتهاها بالدقة أما وجهة التقسيم فتختلف اختلافا بينا لان من الممكن تقسيمها باعتبار النمو الجسمى والنمو الخلقى أو النمو الفكرى أو اللغوى وهكذا ولكنا سنتكلم اجمالا عن مجموع هذه الأشياء لأن الذى يساعد المدرس فى فصول الدراسة هو وجود صورة ذهنية فى نفسه من حياة الطفل فى أعماره المتتابعة حتى يعرف ميوله

وغرائزه فى كل عصر ويسترشد بها فى طريق التدريس واختيار المناهج ويطبقها على تلاميذه فيزداد عاما وثقة ويقينا وتشتد رابطته بهم ويعذرهم اذا مالوا الى الحركة ولجئوا الى اللعب وسئمت نفوسهم الدرس وفضلوا الاشياء العملية ويعرف أن ذلك طبعى فيهم وأن هذه فطرتهم التى فطرهم الله عليها فيأتى البيوت من أبوابها ويستعمل الحكمة والحزم فى الجرى على مقتضاها حتى لايحول بينهم وبين النمو ولا يعوقهم عن الوصول الى الكمال ولا يبغض التعلم اليهم وها نحن أولاء فاعلون ان شاء الله

أن عدد الاطوار والعصور يختلف على حسب أساس القسمة والمربين طرق مختلفة ووجهات شخصية فى ذلك وخير شىء فى رأيى أن نقسمها كما يأتى

(١) الطور الاول من الميلاد الى السنة الثامنة
(٢) « الثانى من الثامنة الى الثالثة عشرة
(٣) « الثالث من الثالثة عشرة الى الثامنة عشرة

وهذا أوان الكلام على كل واحد منها

الطور الاول

وجد الناس كثيرا من العناية لدراسة هذا العصر تفصيلا ومعظمه يخرج عن دائرة المدرس ولكنه مع هذا لايستطيع اهماله بحال من الاحوال لأن الحياة نمو مستمر ولابد من الوقوف على مبدئها حتى تعلم مقدار التقدم والنشوء

يولد الطفل عاجزا لاقدرة له الا على الافعال المنعكسة كالبكاء والانمضاء وحركات الرأس وبعض الاعضاء ولكنه لايزال ينمو ويتكامل وتزداد فيه القوة حتى يسخر الجسم لأرادته نوعا ما فيحفظ صدره مستقيما ورأسه معتدلا ويحرك عينيه نحو غاية خاصة ويتبعها ببصره اذا كانت متحركة ويمد ذراعيه و يبسطهما نحو الاشياء التي يجدها حوله ولكن ادراكه للمسافة لايحصل الا تدريجا فهو في أول الأمر يرى القمر مثلا فيمد اليه ذراعه زعما منه أن الوصول اليه ميسور فاذا استحال عليه الأمر المرة بعد المرة عدل عنه ومديده الى بعض الأشياء الأخرى فيتناولها بيده ويحملها الى فمه ويعضها بأسنانه ويبنيها ويرتبها ترتيبا يوافق هواه ثم يهدمها وينقضها ويتابع ذلك زمنا طويلا وتنبعث في نفسه رغبة طبيعية للوقوف على حقائق الأشياء وخواصها على اختلاف أنواعها وتباين أشكالها

أما التوازن الجسمي والتوفيق بين الحركات العضوية فيحصل بعد ذلك ويظهر أثره في محاولة المشي فاذا تم له ما يريد سهل عليه الانتقال من مكان الى مكان واتسعت دائرة تجاربه وساقه حب الاطلاع الى إدراك طبائع الأشياء ومزاياها وتعاونه اللغة على ذلك وفي غضون النصف الثاني من السنة الأولى تظهر فيه غريزة التقليد فتكون عاملا فعالا في نموه وواسطة لتوسيع تجاربه ووسيلة لمحاكاة الاصوات التي يسمعها ولاشك أنها أس اللغة ومبدأ نموها فيه لانه في أول الأمر ينطق بأصوات

ساذجة لادلالة لها على شيء فى نفسه وان كانت تؤدى بعض أغراضه وسرعان مايقلد أباه وأمه ومن حوله ويستعمل الكلمات فى الدلالة على مراده ويجد فى ذلك خير مساعد على النمو الفكرى لأنه يضم الاشياء المتشابهة والاجناس المتماثلة صوابا كان ذلك أو خطأ ويرمز لها كلها بكلمة تبقى فى ذاكرته الى تظهر فى السنة الثالثة فاذا أراد استحضار ماضى تجاربه فما هو الا أن يلجأ الى الذاكرة ويستحضر الكلمة الخاصة ذات الدلالة وبهذا يسهل عليه التفاهم مع من حوله وهذه خطوة واسعة فى سبيل النمو الفكرى والخلقى

لايزال النمو الجسمى سائرا سيرا مرضيا أما شوقه للوقوف على مايشاهد من آثار الطبيعة وظواهرها فيزداد ولذلك تكثر أسئلته فهو يسأل اذا رأى شيئا لم يكن رآه من قبل ماهذا وماذا أصنع به ؟ ومن أين أتى ؟ ومن فعله ؟ ولا شك أن أسئلة كهذه دليل ناصع على ان الطفل أشوق ما يكون للوقوف على كثير من الحقائق الآن شوقه لاثبات له فهو ضعيف الأرادة تستهويه الاشياء الخارجية من مبصرات ومسموعات فيتبعها فهو كالطير تتنقل من فنن الى فنن ومن شجرة الى شجرة وان غريزة التقليد لتنمو ويتسع ميدانها حتى يشمل الحياة بأنواعها ويظهر ذلك فى لعبه وجميع أعماله وهو أشوق مايكون الى اللعب الفردى فى هذا العصر ويساعده فى ذلك خياله القوى الذى يترك له العنان فيهيم فى كل واد ويخلق له من العصا فرسا مسرجا ومن الاحجار والاشجار والأنهار واللعبات وأثاث المنزل عالما حيا يكلمه ويشاركه فى شعوره يأكل ويشرب

ويصح ويمرض وهى قابلة للاستحالة والانتقال من عالم الى عالم فى أقرب من لمح البصر تحت سيطرة الخيال المطلق وسلطان الوهم حتى لقد يخيل له فى بعض الأحيان أن جميع العالم فى قبضته وارادته ويحكى عن صبى كان يلعب مع أخيه الذى كان مغرما بادعاء أنه بطل من أبطال التاريخ اذ الحكايات الخرافية التى كان يسمعها من أبيه وأمه وأن العزة أخذته وملأه الكبر والعظمة فغادر أخاه ومشى فى الحجرة من ناحية الى ناحية فاعترضه أخوه فقال له اذهب فأنى أنا الله

ويصحب قوة الخيال شوق شديد الى الحكايات والاقاصيص ممكنة كانت أوغير ممكنة فكلها فى نظره سواء ولا قدرة له على تمييز نوع من الآخر كما لاقدرة له على ابتكار الحكايات وابتداع القصص ولقد يشتبه الأمر على كثير من الأطفال فلا يميزون الاشياء الخيالية من المواد المحسوسة وينشأ عن ذلك مايسميه المربون «كذب الاطفال»

ولا تزال تنمو فيه قوة الملاحظة حتى تظهر له الفروق وأنواع الشبه وتتبين خواص الأشياء نوعا ما وتنطبع صورها فى نفسه سواء أكانت الصور الذهنية مطابقة للصور الخارجية أم لا ويقارن الأشياء بنفسه وتشتد فيه الرغبة لتقليدها قال ابن طفيل الفتوى فى رسالة حى ابن يقظان يصف حيا قبل أن يبلغ السابعة فلما ثبت فى نفسه أمثلة الأشياء بعد مغيبها عن مشاهدته حدث له نزوع الى بعضها وكراهيته لبعض وكان فى ذلك كله ينظر الى جميع الحيوانات فيراها كاسية بالاوبار والأشعار وأنواع الريش فكان يرى مالها من سرعة العدو وقوة البطش ومالها من الأسلحة

المعدة لمدافعة من ينازعها مثل القرون والأنياب والحوافر والصياصى والمخالب ثم يرجع الى نفسه فيرى مابه من العرى وعدم السلاح وضعف العدو وقلة البطش الى ان يقول فكان ذلك كله يكربه ويسوءه فلما طال همه فى ذلك كله وهو قد قارب سبعة اعوام ويئس من أن يكمل له ماقد أضربه نقصه اتخذ من أوراق الشجر العريضة شيئا جعل بعضه خلفه وبعضه قدامه الخ

اما فى الأخلاق. فان الصبى يشعر بان لوالدته ومن حوله واجبا عليه وسلطانا فيمتثل الأوامر طائعا أو مكرها ويضغط على الميول الحيوانية والغرائز التى لاتتفق مع الحياة المنزلية كالغضب ويحكم نفسه قليلا

وجملة القول أن هذا عصر اللعب والحركة . عصر الأفعال الغرزية عصر التقليد والخيال عصر الشوق المتنقل وملاحظة الخواص الظاهرة واذ قد علمنا مميزات هذا العصر فما بقى علينا الا أن نتساءل عن أثرها فى التدريس وطرقه ومناهجه وما يعود على المدرس من الفائدة . ان الواجب المقدس على من يتولى شئون الأطفال فى هذا العصر أن يسمح لهم بالحركة وأن يشجعهم على الألعاب المفيدة وأن يقدم اليهم الوسائل الكافية وان يمنحهم قسطا من الحرية فى اختيار ماينا سبهم منها وفى الانتقال من مكان الى مكان وفى لمس الأشياء ورؤيتها وشمها وذوقها فان هذه أبواب العلم فى هذا العصر ويجب عليه أن يقص عليهم كثيرا من الحكايات الخرافية بلغة تناسب عقولهم ويبينها برسوم كبيرة واضحة

بسيطة وأن يحثهم على اعادة هذه الحكايات وتمثيلها وايضاحها برسوم على حسب مافهموا منها وعلى اختراع الحكايات الخيالية وحكاية ماسمعوه من أهلهم ومن حولهم

ومن السهل على المعلم ان يختار القصص ويهذبها ويجعلها صالحة مناسبة لحال التلاميذ والتاريخ المصرى القديم مملوء بالقصص اللذيذة المفيدة والحكايات على ألسنة البهائم والطيور شائعة بين الناس وقد جمع كتاب الف ليلة وليلة الغث والسمين وفى استطاعة المدرس أن يختار منه مايشاء مما لايخالف الآداب العمومية العامة. ومن الاشياء التى تجعل هذه الحكايات سارة مشوقة أعادتها وتمثيلها وايضاحها بالصور والرسوم والنماذج من الورق المقوى والصلصال

ولما كانت هذه القصص منها ماهو فظيع مروع منها ماهو سار لطيف وكان التلميذ قد لايفرق بين الحقيقى والخيالى فى هذا العصر وجب على المعلم ترك الحكايات الفظيعة المخيفة كالتى تتعلق بالشياطين والغيلان والحيوانات الضارية والا كانت العاقبة وبالا على الأطفال وقد ترجم الاستاذ على الجارم ما حكاه نشالس لام عن نفسه فقال

« كنت أود لو أمكننى الفرار من وحشة الليل وهو مقبل فى مسوحه السود وواثب على نصف الكرة الارضية بخيله ورجله فاوضعت رأسى فوق وسادتى من سنتى الرابعة الى السابعة أو الثامنة الا وأنا واثق من رواية عفريت مخيف وما جلب لى هذا المصائب الا شارح الكتاب المقدس فانى وان خلقت قوى الخيال بالفطرة لاأرى لى محيصا من اتهامه

فهو الذى ملأ خيالى بهذه الصور المفزعة وهو الذى وضع لى كل ليلة فى فراشى شيطانا يلازمنى ملازمة الغريم عند غيبة عمى أو خادمتى » الى ان يقول « ولقد كنت أخاف أن أدخل غرفة نومى حتى فى النهار المبصر فان فعلت أبعدت عينى عن سريرى معتقدا أن شيطانا فى فراشى فاغرا فاه باسطا ذراعيه فوق وسادتى » ولقد كنت وأنا صغير قوى الخيال كذلك فكانت تتمثل لى الاشياء وترى كأنها عفاريت براقة العيون كبيرة الرءوس طويلة القامة تتبعنى فى الظلام حيث سرت ولما كنت أقرأ كتاب ألف ليلة وليلة توالت على الاحلام المزعجة فأقلقتنى واعتلت صحتى وهذه تكاد تكون تجارب عامة لكل واحد

ان شوق التلميذ فى هذا العصر غير ثابت فهو متقلب متنقل كما بينت قبلا ولهذا وجب على المدرس أن يقصر زمن الدرس ما أمكن وان يعرض على تلاميذه أشياء متعددة خلابة حتى تبعث فيهم الشوق لروايتها ومعرفتها والا يقتصر على إيراد المعاني من طريق واحد لان الطرق كلما تعددت كان ذلك أدعى لبقاء الصور المكتسبة فى الذهن

محمد على المجذوب
المدرس بدار العلوم

يتبع